

« (٩٥) »

إن من القضايا التي حرص الإسلام على تأصيلها في نفوس المسلمين أينما كانوا القوة المعنوية؛ حيث وجه الإسلام المسلمين إلى ضرورة أن يبقوا محافظين على هذا الأمر، فقد قال - سبحانه -: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقد سعى الرسول ﷺ والسلف الصالح من هذه الأمة إلى إحياء هذا الشعور وتنميته في نفوس المسلمين كافة، ومحاولة بقاءه صفة ملازمة لكل فرد منهم، ويدرك المتتبع لتاريخ المسلمين أن قوة المسلمين وضعفهم في شؤون حياتهم جميعها مرتبطان ارتباطاً قوياً ومباشراً بقوتهم المعنوية.

وهكذا ظل المسلمون في القرون الأولى محافظين على هذه القوة، وكانت جيوشهم تتمتع بروح معنوية عالية؛ لأن أفرادها التزموا بتعاليم الإسلام الشاملة، كما انصهروا في بوتقته. وكان جيش المسلمين الفاتح لبلاد الأندلس في طليعة من حافظ على هذه القوة؛ حيث تربى أفراده بمدرسة عقبة بن نافع وموسى ابن نصير وغيرهما من الولاة والقادة الذين أدركوا أن الاستعداد النفسي والقوة الإيمانية لا تقل أهمية عن الاستعداد المادي بالأسلحة والعتاد.

إن مسلمي الأندلس بقوا محافظين على هذه القوة خلال القرون الأولى من وجودهم، ولكن بعد أن انهارت الخلافة الأموية هناك، وقامت على أنقاضها دول الطوائف، بدأ كثير من مسلمي الأندلس بالتخلي عن المبادئ والقيم التي كان أسلافهم قد تربوا عليها، وهكذا تحولت قوتهم بكل معانيها إلى فرقة وشتات ثم ضعف وخور، كما تبدلت غاياتهم النبيلة إلى أهداف ومطامح رخيصة، و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

إن هذا التحول الذي مني به المسلمون في عصر ملوك الطوائف لم ينشأ من

فراغ، كما لم يكن وليد يومه أو ليلته، وإنما تمخض نتيجة لعدد من العوامل التي توافرت فتضافرت على وجوده، وقد كان ضعف الالتزام بمبادئ الدين وتعاليمه عند الخاصة والعامة من أقوى هذه العوامل.

وقد بدا لنا من خلال هذه الدراسة أن انعدام الوحدة السياسية بين مسلمي الأندلس قد أدى إلى تناثر كياناتهم السياسي الموحد إلى عدد من الدول والإمارات الصغيرة، وهذا مما أدى إلى تراخي السلطة فيها؛ ومن ثم عدم السيطرة على البلاد والعباد، حيث فقد الحكم فيها هيئته وصرامته؛ مما أدى إلى ضعف الوازع السلطاني بينهم.

كما أبرزت الدراسة أن روح الجهاد في سبيل الله والشعور بأهميته، قد ضعفت في نفوس مسلمي عصر ملوك الطوائف؛ حيث حلت محلها روح الانهزامية والخور التي ملأت قلوب كثير منهم، وهذا بدل قوتهم ضعفاً وعزتهم ذلاً، وقد أوضحت الدراسة العوامل التي خلقت تلك الروح الانهزامية بين مسلمي ذلك العصر.

وكانت العصبية التي استشرت بين المسلمين هناك من أكبر معاول الهدم التي وجهت ضدهم؛ إذ إن تلك الظاهرة الجاهلية أدت إلى تمزيق المجتمع الإسلامي إلى أشلاء ضعيفة لم تستطع الوقوف في وجه الخطر النصراني؛ مما أدى إلى سقوط ذلك البنيان الشامخ، حيث تحولت عملياتهم الجهادية إلى حروب تأرية، ونزاعات أهلية لا هدف لها سوى إرضاء الذات، والثأر للقبيلة مهما كانت النتائج والآثار المترتبة على ذلك.

وقد رصدت هذه الدراسة مظاهر الضعف المعنوي الذي حل بمسلمي الأندلس في ذلك العصر، حيث كان في مقدمة تلك المظاهر ظاهرة الفوضى السياسية وما أدت إليه من فرقة وخلاف، كذلك أبرزت الدراسة ظاهرة التكالب

على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها، حيث أصبح هذا الأمر غاية وحيدة، وهدفاً مهماً عند كثير من مسلمي ذلك العصر، وهذا بلا شك مما أثر على النيات والأهداف، بل قاد الأمة إلى نزاع داخلي بين المسلمين أنفسهم.

وكان من المظاهر المهمة التي أبرزتها هذه الدراسة ظاهرة موالاتة كثير من ملوك الطوائف للنصارى وما تمخض عن ذلك من تبعات أدبية ومادية أثرت في كثير من شؤون حياة المسلمين ولا سيما الجانب الحربي منها، حيث كسرت الحواجز النفسية التي كانت تفصل بين المسلمين والنصارى.

كما أبرزت هذه الدراسة ظاهرة الترف والخلاعة والمجون وغيرها من الأوجاع الخلقية التي انتشرت في مجتمع عصر ملوك الطوائف، حيث توصلت إلى أن هذه الظاهرة من أكبر العوامل التي أوقعت أولئك القوم في مستنقعات الضعف وأحوال الذل والانهازامية.

كما توصلت الدراسة إلى أن ذلك الضعف وما صاحبه من مظاهر مرصية، قد خلف العديد من الآثار والنتائج التي بدت واضحة بحيث لا يمكن تجاهلها أو الإقلال من شأنها، وكان في مقدمة هذه الآثار الضعف العسكري الذي مني به المسلمون، وما صاحبه ذلك من ازدياد للمد النصراني، وضعف للثغور والحصون في تلك الديار.

ويضاف إلى ما سبق ما مني به المسلمون من انهزام فكري وتدهور في الحياة العامة، حيث تردت الحالة الأمنية، كما ضعف الاقتصاد، وانتشر الفقر، وكثر القلق النفسي بين الناس، وقد توصلت هذه الدراسة إلى أن هذه القضايا إنما ظهرت حينما ضعف المسلمون في تمسكهم بدينهم، وحادوا عن منهج ربهم، فأصابهم الله بالضعف النفسي قبل السياسي والعسكري.

والله المستعان